تابع الصراع بين البابوية والإمبراطورية

وباعتلاء فردريك الأول Frederick I Barbarossa بربروسا عرش الإمبراطورية (1152-1190م)، ستبدأ المرحلة الثالثة من الصراع بين السلطتين وكان سبب ذلك هو تدخل التاج الإمبراطوري في ايطاليا، غير أن حملات الإمبراطور على ايطاليا باءت بالفشل وكانت الحملة الخامسة آخرها (1174-1176م)، وهذا نتيجة لتحالف المدن اللومباردية مع البابا من أجل إعطائهم الاستقلال، وهكذا فعل البابا اسكندر الثالث Alexander III (1159-1181م) بفردريك كما فعل سلفه جريجوري بهنري الرابع في كانوسا، إلى أن اعتلى عرش البابوية إنوسنت الثالث(1198-1216م) الذي كان ينظر إلى البابا على أنه خليفة الله على الأرض، وأن الحكام والملوك أتباعه وعماله، وبهذا أصبح الاصطدام بين السلطتين واردا.

ولقد بلغت البابوية أوج عظمتها في عهده وأصبحت الإمبراطورية تحت نفوذه وسلطته ودانت له كل كيانات الغرب اللاّتيني بالولاء[1]. "وقد شبه البابا إنوسنت الثالث البابوية بالشمس والإمبراطورية بالقمر الذي يستمد نوره منها"[2]، وظهرت شخصية فردريك الثاني بعد انتصار فيليب أغسطس ملك فرنسا على خصومه في موقعة بوفان Bouvines سنة 1214م، حينها انسحب أوتو الرابع Otto IV إلى سكسونيا إلى أن توفي سنة 1218م، فأصبح المجال مفتوحا لفردريك ويتوج إمبراطورا على ألمانيا والصقليتين.

لقد كان فردريك ذو دهاء وثقافة عالية يجيد عدة لغات منها اللغة العربية، حتى لقب "بأعجوبة الدنيا"، وكانت الظروف لصالحه إذ توفي البابا إنوسنت الثالث سنة 1216م، فتحرر فردريك من الهيمنة البابوية، غير أن البابا الجديد هونوريوس الثالث Honorius III (1216-1227م) لم يهتم للصراع بين السلطتين، ووجه جهوده لخوض غمار الحروب الصليبية من جديد، سبق وأن تعهد الإمبراطور للبابا بخوص صليبيته سنة 1215م، وبفصل صقلية عن الإمبراطورية غير أنه تماطل للقيام بذلك، بل أنه توج ابنه هنري سنة 1220م، كما تم تتويج فردريك الثاني إمبراطورا في روما في السنة نفسها، وهذا بعد أن جدد العهد بالقيام بصليبيته[3]. وبوصول البابا جريجوري التاسع إلى سدة عرش البابوية (1227-1241م) أصر على صليبية فردريك مرة أخرى، ونتيجة لفشله أصدر قرار الحرمان ضده سنة 1227م[4].

وأخيرا أدرك الإمبراطور أنه من واجبه القيام بصليبيته على الشرق، والقصد من ذلك ليس خوضه للحرب وإنما لمفاوضة المسلمين، بل استعطافهم لينال مبتغاه في ذلك، وتشير رسالة بعث بها الإمبراطور إلى السلطان الكامل الأيوبي(1218-1238م) :"أنا مملوكك وعتيقك

وليس لي عما تأمره خروج، أنت تعلم أني أكبر ملوك البحر، وقد علم البابا والملوك باهتمامي وطلوعي، فإن رجعت خائبا انكسرت حرمتي بينهم"[5].

وبموجب اتفاقية سنة 1229م بينه وبين السلطان الكامل، استطاع هذا الإمبراطور أن يحقق ما عجزت عنه الجيوش الصليبية من قبل في استرجاع بيت المقدس بعد أن استرجعها السلطان صلاح الدين من منهم سنة 1187م. حيث دخل فردريك إلى كنيسة القيامة ووضع التاج على رأسه، وبهذه الطريقة التي تعني أنه لم يتلق التاج من البابا، وفي عودته دخل في صراع مع البابوية، فاصدر جريجوري التاسع قرار الحرمان ضده للمرة الثانية سنة1238-1239م[6].

غير أن هذه السطوة والنفوذ للبابوية لم تدم، إذ أنها سرعان ما رجحت كفة السلطة الزمنية، وتحدت البابوية في مزاعمها على العالم المسيحي، وقام أتباع الملك الفرنسي فيليب الرابع (1285-1314م) باعتقال البابا بونيفاس الثامن Boniface VIII(1294-1303م) وإذلاله[7]، وأصبحت البابوية تسير نحو الأسوأ، ويترك البابوات روما ويصبحون في منفاهم بمدينة أفينيون Avignon مدة سبعين سنة وزيادة (1305-1378م)، وتحدث القطيعة الكبرى في الغرب اللاّتيني (1378-1417م)، وبدأت المجالس تعقد لتدارك الأمر، وتعلو الأصوات بضرورة الإصلاح، في حين بدأت العامة تتخلى عن البابوية، نتيجة تخليها عن رسالتها الروحية، وانصرافها لممارسة العمل الدنيوي[8].